إشكاليات الثقافة والهوية ومدي تأثير العولمة عليهما

د. علي الطاهر عريبي
كلية الآداب – جامعة الجبل الغربي

في هذا البحث سأتعرض بالدراسة والتحليل إلى طرح إشكاليات ذات أهمية في وقتنا المعاصر: الثقافة والهوية وتأثير العولمة عليهما مع التركيز على خصائص التفافة الإسلامية وسبل حمايتها .

مفهوم الثقافة غائر الإبعاد فهي لا تقتصر على مجموعة الأفكار والمعارف التي يحملها فرد أو تتعارف عليها مجموعة من الناس [1] .

أما مالك بن نبي فيري الثقافة (علاقة عنصرية بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع) [2]

وأما روت بنديكت يرى الثقافة ((نمطاً من التفكير والعمل ينتظم أنشطة شعب يميزه عن الشعوب الأخرى مع ما يندرج مع هذا التميز من أفكار ومشاعر وقيم وأشياء وأعمال ونزعات وتراكمات))[3]

أما تعريف المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة " اليونسكو" عام 1982ف في المؤتمر العالمي " الثقافة هي جميع السمات الروحية والمادية، والفكرية، والعاطفية " التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون، والآداب، وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم، والتقاليد ،والمعتقدات فالثقافة هي مجموع

(1) سعيد سالم الفائدي ثقافتنا بين العولمة والعالمية جامعة الجبل الغربي كلية الآداب مشروع بحث لم ينشر بعد
(2) سعيد سالم الفائدي نقلا عن مالك بن نبي مشكلة الثقافة دار الفكر ترجمة عبد الصبور شاهين ط مكتبة (د . ن ص 20) .
(3) على عقلة عرسان دراسات في الثقافة العربية طرابلس جميعه الدعوة الإسلامية العالمية.

الثقـــافة والحضـــارة

تشكل جانبها المادي قبل تشكل جانبها الفكري أو المعنوي، أي قبـــل أن تكون لها ثقافة تجسدها مما جعلها تعاني حالة تخلف ثقافي وروحي بين في سلوك مجتمعها إن للثقافة معاني عديدة إنسانية تتعلق بما ينتجه العقل أو الخيال البشري لصقل الذهن وتهذيب الدوق والسلوك، ومعني شعبي وهـــي التي تشمل ثقافة الشارع أو السوق وهذه ليست لها ضـــوابط واشـــتراطات وليست لها أهداف أو مضامين، وهي الأكثر شيوعا وهذه تتضمن منظومـــة القيم والمعارف والمفاهيم العرفية والدينية والأخلاقية والآداب والفنون[10] .

إن مفهوم الحضارة أعم واشمل من مفهوم الثقافة الآن العلاقة بـــين الحضارة والثقافة هي علاقة شامل بمـــشمول، أي أن الحـــضارة تتـــضمن المنجزات المادية والمعنوية، أما الثقافة فهي التي يكتسبها المرء بالممارسة وكثرة القراءة والاطلاع ومداومة التحصيل ويري الأديب الفرنـــسي إدوار هريو 1872-1975ف بأن الإنسان يتعلم قبل أن يتثقف وقد ينسي ما تعلمه إلا أنه لا ينسي ثقافته، لان الثقافة أكثر ثباتاً في ذاكرته وأعمق أثـــراً فـــي حياته من العلم [11].

والحضارة ذات جانبين جانب مادي وجانب ثقـــافي فكـــري حيـــث الجانب المادي يمثل المنشآت العمرانية كالمساجد والمكتبات والمؤســـسات العلمية التي كان لها دور كبير في إظهـــار التقـــدم الحـــضاري العمرانـــي والزخرفي، أما الجانب الثقافي الفكري فيتضمن المعارف والعلوم والأنظمة التي تعالج شئون المجتمع والمال والحرب والـــسلم والقـــضاء والمنـــاهج العلمية والتربوية إن حضارة الإسلام قد تميزت عن غيرها من حـــضارات العالم في كل شيء في مصدرها، في خصائصها، في غاياتها وأهدافها[12].

يرى محمد عمارة في كتابه أزمة الفكر الإسلامي المعاصـــر بـــأن الثقافة كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها.... فـــالتثقيف مـــن معانيـــه

---

(10) عمر ميلاد سلامة الثقافة والهوية بين المفهوم والثقافة والغاية في التواصل مرجع سابق ذكره ص 34

(11) المرجع السابق ص33

(12) مفتاح السنوسي، بلعم ملامح الحضارة الإسلامية ومدي اختلافها مع الحضارة الغربية في التواصل العدد الثالث ص71

التهذيب، وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع بالأشياء فإن الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار، وكلاهما عمران، عمران للواقع وعمران للنفس... منها شقا الحضارة التي هي العمران [13]

إن الثقافة جزء من الحضارة والحضارة تتضمن ثقافات متعددة والثقافة تنظم جميع السمات المميزة للأمة وإن كانت هذه الميزات المادية أو الروحية أو الفكرية أو الفنية أو الوجدانية بالإضافة إلي طرائق التفكير والإبداع الفني والجمالي والمعرفي الخ [14]

هذا ويمكن القول بأنه يصعب التفريق بين الثقافة والحضارة لأنهما يحملان أحيانا مفهوماً واحداً وإذا أردنا أن نميز بينهما فالحضارة درجة من الرقي يمكن ملاحظتها وتقديرها ومالك بن بني يري بأنها "عملية العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد وأعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه " [15]

لقد تميزت الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات الأخرى حيث أنها ثقافة أمة واحدة وهي تعبر عن هويتنا، وهي ثقافة إيمانية بالنظر إلي مصادرها ولها دلالتها لربطها بين العروبة والإسلام وهي ثقافة أخلاقية لعدم فصلها بين القيم والسياسة والاقتصاد والبيئة والمجتمع، وهي عالمية لمخاطبتها للجميع وتقوم على الشورى وتكريم الإنسان، كما أنها تتصف بالحيوية لاستمرار تواصلها وعطائها عبر أقطار العالم الإسلامي وعبر مراحل التاريخ الإسلامي وليست بثقافة جامدة، وهي وسطية ليست جامدة بل تتناول إشكالية العلاقة بين العقل والنقل بطريقة خاصة، ولعله من المجدي ذكر قيمة الإيمان وقيمة العلم وقيمة الوقت وقيمة العدل والكرامة وقيمة التخطيط والتنظيم وقيمة العمل التي تختص بها الثقافة الإسلامية، كما أنه لا يفوتنا التميز بين العربية والإسلامية كثقافة واحدة وبين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية كثقافتين، أي بمعني أن الثقافة العربية ثقافة قومية وإنسانية لاستنادها إلي أصول الأمة وإلي تراثها وتستوعب المنتسبين إليها

(13) محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر دار الشرق الأوسط للنشر 1999 ص25

(14) على حنك صمب، الثقافة العربية الإسلامية تجاه العولمة في التواصل السنة الثانية العدد السادس يونيو 2005 ص100

(15) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ترجمة محمد عبد العظيم القاهرة، مكتبة عمار ط أولي 1971 ص49

العولمة مصطلح قديم، فهي ليست نتاج العقود الماضية التي ازدهر فيها المفهوم وذاع وانتشر وأصبح أحد المفاهيم الرئيسية لتحليل الظواهر المتعددة التي تشملها، وهي السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة والثقافيـــة وسبب بروز العولمة مؤخرا يرجع إلى الثورة العلمية والتكنولوجيا من ناحية والتطورات المذهلة في عالم الاتصالات المتمثلة في تطور الحواسيب الالكترونية والأقمار الصناعية والانترنت[20] أما المفهوم المعاصر للعولمة فهو الأمركة ولا تعني مجرد الـــسيطرة والهيمنـــة والـــتحكم بالـــسياسة والاقتصاد، ولكنها تعني حمل ثقافة "غربية أمريكية " تغزو بهـــا ثقافـــات مجتمعات أخرى وتوجه استعماري جديد يهيمن فيه الغازي على العقل والتفكير ليعمل وفق أهداف الغازي ومصالحه ، كما جاء علـــى لـــسان بوش بأن القرن الواحد والعشرين سيشهد انتـــشار القـــيم الأمريكيـــة وأنماط العيش والسلوك الأمريكي [21]

لقد قسم رولاند بنرستون نشأة تاريخ العولمة إلى مراحل هي: –

1. المرحلة الأولى ظهور الدولة القومية بظهور المجتمع القومي منذ حوالي منتصف القرن الثامن عشر وقسمها إلى:
2. المرحلة الجنينية استمرت من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر .
3. مرحلة النشوء امتدت من منتصف القرن الثامن عشر حتى 1870ف.
4. مرحلة الانطلاق ما بعد 1870ف حتى العشرينيات من القرن العشرين.
5. امتدت من العشرينيات حتى منتصف الستينيات مـــن القـــرن الماضـــي واستمرت حتى التسعينيات.

يمكن القول بأن العولمة المعاصرة ترجع إلى انهيـــار الـــشيوعية وانفجار الاشتراكية من الداخل ونهاية الحرب الباردة [22].

---

[20] على الطاهر عريبي العولمة وانعكاساتها على التقارب العربي الإفريقي مجلة كلية الآداب العدد الرابع 2004

[21] نفس المرجع السابق ص 91 أيضا اجقوا على، الثقافة العربية الإسلامية في مجلة الدعوة الإسلامية 2004 العدد 21 ص 293

[22] على الطاهر عريبي المرجع السابق ص 184

إن العولمة تستطيع أن تعمل عملها إلا في ظل تفكك العالم الإسلامي وبالتالي فالدول القزمية والشعوب الفاقدة لهويتها تعد المجال المفضل لقوى العولمة ولمستفيدون من العولمة ينتجون نظم الهيمنة والسيطرة من أجل تحقيق المزيد من الماكسب، إذا على المسلم واجب عليه أن ينجزه ولابد من أعمال كثيرة وكبيرة توضح الأوامر بين المسلمين إلى جانب وحدة التحديات ووحدة المصير المشترك إن العالم الإسلامي مرشح للتصدي للعولمة لأنه نظام شمولي لان مبادئ الإسلام من الممكن أن تحل محل القيم والمبادئ كبديل لحالة الضياع والفوضى التي تبشر بها العولمة هذا المصطلح المائع لا تمثل مشروعا ثقافيا على الإطلاق ولا تقدم بديلا للثقافة بقدر ما ترسخ التبعية لحفنة الأغنياء الذين يزدادون غنا واغتيالاً لقيم الإنسان الثقافية ويمكن القول بأن العولمة الثقافية تعني سيطرة بعض الدول الكبرى على مجال سيادي هام للدول الصغيرة هو المجال الثقافي لإحداث خلخلة في البنية الثقافية لتلك الدول مما يساعد بطبيعة الحال على نشر ثقافة العولمة وهو السلاح الآخر الذي أخذ تجار العولمة يستخدمونه لامتصاص ثروات الشعوب [23].

إن تحديد مفهوم العولمة الثقافية لازال غامضا شأنه شأن المصطلحات الأخرى وصياغة تعريف للعولمة تبدو مسألة شاقة نظرا إلى تعدد تعريفاتها والتي تتأثر أساساً باتجاهات الباحثين والأحكام التي يتبنونها رفضا أو قبولا وهي غير مكتملة الملامح .

إن الهدف من عولمة الثقافة القضاء على الثقافات الأخرى مدعين عدم انسجامها مع توجهات الثقافة الغربية المادية لخنق الثقافة العربية الإسلامية وإيقاف خطرها الزاحف.

إن العولمة جاءت لتفكك الدول وتزيد من فوضى الآراء الفردية وتطرح حالة من الفوضى وتغرب الإنسان وتعزله عن قضياها وتدخل الضعف في نفسه من خلال تشكيكها في جميع قناعاته الوطنية والقومية والأيدلوجية والدينية لغرض الهيمنة عليه من قبل النخب المسيطرة على

[23] احقو على الثقافة العربية الإسلامية وتحديات العولمة، مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد الواحد والعشرون 2004ف، ص 287

القرية الكونية فالعولمة تشكل تحديات للمجتمعات صاحبة الخصوصيات أو الهوية الثقافية لأنها تجعل من الإنسان مستهلكا أكثر من أنه منتج .

لقد أظهر العديد من علماء السياسة في الغرب وعلى رأسهم صاموئيل هنتجتون في بداية التسعينيات في كتابة صراع الحضارات عداءهم وخشيتهم لتعاظم الإسلام في الغرب، بل اقترح البعض منهم ضرب المسلمين في عقر دارهم، ولعل الإحداث الأخيرة دليل على حرمان الشعوب الإسلامية من حقها المشروع في تطوير أوضاعها السياسية وتنمية أحوالها الاقتصادية طالما أصرت على الاحتفاظ بهويتها الإسلامية [24].

وفي ورقة قدمها الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي بعنوان أية إستراتيجية للهوية القومية تجاه العولمة تناول فيها ماتتعرض له الأمة العربية من تحد لوجودها وكينونتها الثقافية والحضارية، أما المتغيرات السريعة التي حمتها تعميم العولمة المتمثلة في استلاب مقومات حضارتها وتهميش وتغريب تراثها والتقليل من شأنه والسعي إلي هندسة جديدة تقضي بالدعوة إلى تبني النظام الحضاري الدولي الجديد وتسأل عن مدى الاستعدادات التي أعدتها هاته الأمة لمجابهة عديد الرهانات أو لحماية الهوية من الذوبان و المسخ.

وفي تشخصيه للواقع العربي الإسلامي اقر بأن الواقع العربي واقع متدن متخلف ووضع المتلقي فقط وليس الفاعل فيه وهو ما يترجم عن وجود ضعف مؤسساتي في البني السياسية والهيكلية للمجتمعات الغربية برمتها كما أشار إلى الثنائية القاتلة التي يعيشها الإنسان العربي بالأمس وضحالة إيمانه ومكوناته القومية والحضارية بالنسبة للسواد الأعظم اليوم حيث قال " لقد كان التاريخ العربي بالأمس مثقلا بالدلالات والرموز والإنجازات عبر الفضاءات الجغراسياسية العربية والأندلسية وكشاف انجازاته المعرفية والمعمارية يشكل سجلا مشرفا " لهاته الأمة العبقرية الخلاقة المبدعة والتي أعطت أفضل ما لديها اجتهادا وعقلانية

[24] د : سام رجا،جندل، أم هيمنة الإسلام والعولمة في التواصل، العدد الرابع ديسمبر 2004ف ص 44

لتطوير الفكر البشري عموما وأكد بان لعرب الأمس هوية وليست عقدة هوية[25].

إذا على المسلمين في الوقت الحاضر انتهاج إستراتيجية للتصدي لمشروع العولمة الذي اكتسح العالم بأسره وبان يهدد جميع البنيات الثقافية في المجتمعات وصولا لتغير المجتمعات نحو النموذج الغربي .

إن الدعوة التي تسمع في كل مكان نحو الانفتاح على الآخر يطلب فيه من المسلم التخلي عن كل المبادئ والقيم الإسلامية وأن يقبل كل ما يأتي به الأخر مهما كان مجافيا كما نعتقد بصوابه بدعوى التمشي مع روح العصر للاستفادة من خيرات العولمة إذ الثقافة هي السلاح الذي يمكن الأمم من مقاومة العولمة التي تدعو إلى ذوبان المجتمعات في النموذج الغربي والإسلام يرتكز بثقافته الواسعة على المنهج الرباني بقطعياته وثوابته وأدبياته وإن أي تجدير للتنوع الثقافي بيننا وبين ما تدعو إليه العولمة يجب أن يقوم على تحسين معرفته بهذا المنهج .8

أن المسلمين في شتى بقاع العالم يؤمنون بمبدأ الحوار والتفاهم والتعارف والتعاون بين أبناء البشر في مختلف الميادين ولكن على أساس احترام المسلمين لشخصيتهم الثقافية الحضارية الإسلامية كما قال تعالي " **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** " **سورة الكافرون الآية(6).**

إذا على المسلمين في شتى بقاع العالم انتهاج إستراتيجية التصدي لمشروع العولمة الذي اكتسح العالم بأسره وبات يهدد جميع البنيات الثقافية في المجتمعات وصولا لتغير المجتمعات نحو النموذج الغربي .

يتفق المفكرون العرب على أن العولمة ستؤثر على الوضع العربي ولكن يختلفون على مدى هذه التأثيرات وعمقها، والخطورة تكمن في أن تفرض العولمة شروطها على الأمة العربية بمنظار الآخرين لا أن يكيف العرب العولمة بما يتناسب مع مصالحهم وثقافتهم، كما إن الخطاب العربي

[25] عبد الجليل التميمي مؤسسة التميمي أية إستراتيجية للهوية القومية تجاه العولمة لم ينشر بعد هذه الورقة قدمها لمؤتمر عقد برعاية جمعية الدعوة بفندق المهارى بطرابلس .

في أمس الحاجة لدراسة أفضل السبل للتعاطي مع هذه الظاهرة منطلقا مـــن الظروف الذاتية أكثر من التركيز على سماتها وهذا قد يتطلب صياغة رؤية عربية متماسكة وفاعلة تجاه العولمة لقد آن الأوان لتكثيف جهود المسلمين والعرب من أجل دعم وحماية الثقافة العربية الإسلامية خاصـــة وأن هـــذه الأمة تتعرض لمزيد من هجمات العسكرية والاقتصادية وبالأساس التهجم على الثقافة الإسلامية بدعوى أنها تحمل جذور الإرهاب والتخلف .

يتفق الجميع بأن حماية الهوية القومية من مخاطر العولمة تبـــدأ أولا وقبل كل شيء بالنسبة للإنسان العربي المسلم مـــن ادراكـــه الـــواعي للسيرورة التاريخية للمجتمع العربي المتغذي بقيم الانفتاح والإبداع والتطعيم الحضاري المتواصل ومقدرته على إثراء الرصيد الفكري العـــالمي بمـــا احتوت عليه الحضارة العربية في العصور الوسطى والتي لازالت مجـــال تقدير علمي ونوعي من طرف الباحثين الـــدوليين أنـــي كانـــت ديانـــاتهم ومعتقداتهم وحضاراتهم، إن الوضع الراهن يتطلب من العرب اخذ الحيطة وتبني مشروعاً مدروساً ومتكاملاً لحماية ثقافتنا وهويتنا من مخاطر العولمة ولا أعنى بذلك الانغلاق، بل الأخذ بأسباب التقدم العلمي والاســـتفادة مـــن ايجابيات العولمة ونبذ سلبياتها.

لقد آن الأوان أن نصبح أمة الواجبات قبل امة الحقوق وأن نـــزرع الأرض العربية بكاملها بالمؤسسات البحثية كمـــا نـــادي المـــؤرخ الكبيـــر قسطنطين زريق.